المقدمة

الحمد لله الذي فتق بالشعر ألسنة الشعراء ، وصقل بالفصاحة بيان الفصحاء ، أحمده سبحانه على نعمه المواثل ، ومننه الفواضل ، وإكرامه المتواصل .

وصلاة وسلاما على منن فجَرَ اللهُ فيه ينبوعَ البيان ، وملَّكة ناصية القـول وأزمَّــة المعانْ ، سيدنا محمد الهادي إلى كل إحسان ، والمرشد إلى سعادة الإنسان .

وبعــــــــد،،،

فها أنذا بعد تطواف دام سنوات عدة ، ألقي القلم ، وأطرح عني وعثاء السفر .

فألقت عصاها واستقرَّ بها النوى كما قَرَّ عيناً بالإياب المسافرُ

أرتاني أحسنت أم أسأت ؟ وهل بلغت الغاية فيما أردتُ أوقصرت ؟ لا أعلم ذلــك يقينا ،ولكن الذي أنا موقن به أني بذلت ما أستطيع جهدا وفكرا وسهرا وعملا.

لقد فتحتُ باب هذا البحث وأنا أظن الأمر أيسر مايكون ، وأحسب أنها جولة أو جولتان وينتهي كل شيء ، هكذا صورت لي نفسي ، حتى إذا تركت الشاطئ وخضت اللج تكشفت صعاب لم تكن تخطر لي ببال ! لقد وجدتني مضطرا إلى تحرير مفهوم الجملة بادئ ذي بدء لأنطلق على بينة ورشاد ، ثم وجدت نفسي ثانيا أمام آلاف الجمــل ، وكل واحدة منها تقتضيني إعرابا وتحليلا وتخريجا لمشكل تركيبها ، ثم وجدت نفسي ثالثة أمام مناهج شتى ، وألفيتني مضطرا إلى الموازنة بينها ثم افتراع منهج جديد أرتضيه وأسير عليه .

أتراني لو كنت تبينت هذه الصورة منذ أول يوم سأستمر في البحث ؟ لست أدري ! إن البحث التطبيقي " يتسم بالصعوبة من بعض نواحيه ، ويتطلب جهودا صادقــة في

سبيل الوصول إلى نتائج علمية يحتاج إليها المتعلمون والباحثون جمعيا "[1]،ولقد أفضى بي هذا البحث التطبيقي إلى مضايق كثيرة كان بإمكان البحث النظري أن يتجنبها أو يلتف عليها ، وهذا ماكنت غافلا عنه يوم استسهلت الأمر ، وقلـت : إن هـي إلا درجـة تُرتقَى !

وأنا أعلم أنّ مِن الناس مَنّ لايرضى عن هذا الضرب من البحوث ، وربما عده أولئـك نوعا من العبث ، ورأى فيه تسطيحا للبحث العلمي ، وتعويدا للدارسين على الكسـل والاسترخاء وأخذ الدرجة العلمية كيفما اتفق ؛ حيث إنه لايتعمق في جزيئات المسـائل ولايتوسع فيها! ولعمري ليس الأمر كما ظنوا ، فالغرض الأول من البحث ليس تحرير المسائل ، وتفتيقها ، بل هو الكشف عن البنية النحوية عند الرافعي رحمه الله ، فمــن ثم كان يعنى باستخراج المسائل وصور التراكيب أكثر من عنايته بالمناقشات المفصلة لكــل قضية ترد .

ودونك مثلا مشابها في علم النقد ؛ فالباحث فيد قد يأخذ قضية محددة يناقشها ، وقـد يعمد إلى نص أو ديوان يستجلي جوانب البلاغة وصورها فيـه ، وهـو حينئـذ معـني باستخراج هذه الجوانب أكثر من عنايته بتحقيق مسائلها .

وليت شعري هل غفل قائل هذا القول عن أن بحثا كهذا لايمكن أن يتقدم الباحث فيه خطوة واحدة حتى يحلل ويعرب هذا القدْر الهائل من الجمل ؟ والإعراب في ذاته أمر غير يسير ، بل هو ثمرة العربية ولبها ، وكان أسلافنا قد أكثروا من هذه الدراسات التطبيقيـة على النصوص الحية إيمانا منهم بقيمتها ، ومعرفة منهم بفضلها ، وسيرد لذلـك مزيـد بيان [2] .

ثم لا ينسينّ القارئ الكريم أن من مشكلات هذ1 البحث أيضا (تأسيس المنهج) ؛ إذا الإحاطة بكل جزيئات الجملة

[1] (?) علم اللغة العام – الأصوات للدكتور كمال بشر :63 .

[2] (?) كن على ذُكْرٍ أبدا أن الرافعي أديب محدث تكثر عنده التراكيب الغريبة التي يتطلبُ تحليلها فكرا وجهدا .

متعذرة ، بل هي غير لازمة ؛ لأن معناها أن ننقل النحــو كله في رسالة واحدة ، وليس هذا هو الغرض ، بل الغرض رسم الملامح العامـة لجملـة الرافعيّ ، فهل تأسيس منهج يضمن تحقيق هذا الهدف أو يقاربه ، ثم الاحتجاج له بكـلام النحاة ، ثم موازنته بغيره ، هل هذا كله (نوع من العبث ، وتسطيح البحث العلمـي ، وتعويد الدراسين على الكسل والاسترخاء وأخذ الدرجة العلمية كيفما اتفق) ؟

ولقائل أنْ يقول : ما الوجه في دراسة جملة الرافعي وهو ليس ممـن يحتـج بلغتـه ؟ والجواب على هذا من وجهين :

1- الرافعي أشد المعاصرين محافظا وتمسكا ، كان يعيش قبل الكتابة في جو عـربي خالص .

2- مثل هذا البحث يمكن أن يتوصل من خلاله إلى مقدار الفرق بين الفصحـى المعاصرة ، والفصحى الأولى التي صورتها لنا كتب النحاة .

وهذا البحث الذي أقدمه ينبغي أن يكون كالمقدمة لبحث آخر يبنى عليه ، وتتجلى فيه خصائص الرافعي بصورة أشمل وأكمل ؛ ذلك أن العناية في هذا البحث منصرفة إلى بيان نظام التركيب لكل جملة على حدة ، وكشف النقاب عن العلائق بين عناصرها ، وتبيين أنماط التداخل بين أجزائها ، كل ذلك في إطار الجملة الواحدة ، وتكون الخطوة الثانية بعد ذلك أن يبحث باحث في علائق هذه الجمل بعضها ببعض ، وكيف ارتبط آخر منها بأول ارتباطا معنويا أو صناعيا كالارتباط بعلاقات الاستدراك والتبيين والتعليـل والعطــف ... الخ .

زقد جعلت هذا البحث في تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة ، عر ت في التمهيد لترجمـة موجزة للرافعي ركزت فيها على مذهبه الكتابي ، كما تحدثت عـن مفـهوم الجملـة ، وتوسعت في استقراء مناهج البحث الموجودة قبل أن أخلص إلى وصف منـهجي الذي سرت عليه ، وأشرت فيه كذلك إلى فائدة دراسة بناء الجملة .

وفي الباب الأول درست الجملة البسيطة ، وفي الثاني الجملة الشرطيـة ، وفي الثـالث الجملة المركبة غير الشرطية ، أما الخاتمة فقد بينت فيها ملامح الجملة الرافعية كمــا أظهرها البحث ، وأشرت فيها كذلك إلى أبرز النتائج ، وأهم المســائل التي ناقشـها البحث .
وبعد ، فربما ظن الناظر بادي الرأي أن صاحب هذا البحث قد تنكب طريق النحاة ، وفرق له دربا جديدا سار فيه وحده لايلوي على شيء ، أو أن الباحث غرتـه نفسـه فتوهم أن أتى بشيء ، وليس الأمر – علم الله – كذلك ، وأنى لباحث ناشئ غــض الإهاب أن يتفتق ذهنه عم منهج جديد ، أو رؤية جديدة ؟

إن الباحث لم يصب – ولله الحمد – بداء العجب الذي يأخذ بصاحبه فيزين له كل مايعمل ، حتى ليظن الرأي الفطير منهجا جديدا استدرك به على القوم ، فعرف مـا لم يعرفوا ، وفطن إلى مالم يفطنوا إليه .
ولقد علم الله أنني سرت في طريق ما زلت أسمع فيه قرع نعال القوم من أئمتنا الكملة رضوان الله عليهم ، ومازدت على أن أعملت عقلي ، ونميت بذور أفكار كانوا قد بذورها ، فإن يكن النبت الحسن فلله الفضل والمنه ، وإن عادت الأرض قيعانا لاتمسك ماء ولا تنبت ثمرا فحسبي أن اجتهدت .
والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .